مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (5)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (5) 2014

من وظائف الحركة الجسديّة في كتب التراث العربي

الدكتور محمّد بصل*
إسماعيل المصري**

(تاريخ الإيداع 29 / 5 / 2014. قبل للنشر في 28 / 9 / 2014)

□ ملخّص □

تتناول هذه الدّراسة دور الحركات الجسديّة في عمليّة التّواصل البشريّ، إذ تعدّ من اللّغات العالميّة، فالإنسان يستخدم أعضاء جسده من خلال إشاراته وإيماءاته ليحقّق تواصله مع الآخرين، وقد تضمّنت تأصيلاً لهذا العلم في كتب التراث العربي، ومن ثمّ تحليل بعض الحركات الجسديّة الواردة فيها، وإبراز دور العربَ في وضع ملامح أوليّة له.

الكلمات المفتاحية: لغة الجسد، اللّغة الصّامتة، التّراث اللّغويّ.

*أستاذ– قسم اللغة العربية –كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.
**ماجستير– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (5)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (5) 2014

Des fonctions dumouvement corporel dans les livrers de l'he'ritage arabe

Dr. Mohammad Bassal*
Ismaël AL-massri**

(Déposé le 29 / 5 / 2014. Accepté 28 / 9 / 2014)

□ Résumé □

Cette étude prend Le rôle des mouvements corporels dans la processus de la communication humaine

C'est une des langues mondiales où l'homme utilise les membres de son corps dans ses signes et ses gestes pour réaliser sa communication avec les autres .

Elle contient l'origine de cette science dans les livres de l'héritage arabe puis une analyse de quelques mouvements corporels y Mentionnés et ensuite révéler que les arabes sont déjà mis les principales aspects de cette science

Mots Clés: La Langue du corps - La Langue silencieuse - L'héritage langagier

*Professur doctore , section de la langue arabe faculté des lettres et sciences humaines université de Techrine Lattaquié
**magistère section de la langue arabe faculté des lettres et sciences humaines université de Techrine Lattaquié

مقدمة:

كثر الاعتقاد بأنَّ اللّغة المنطوقة هي الوسيلة الوحيدة للاتّصال بين أفراد المجتمع، وعني الباحثون اللّغويون بتأليف أبحاث متنوعةٍ ومتعدّدة، تفصح عن أهميّة اللّغة المنطوقة ودلالات مفرداتها وتراكيبها، إلاّ أنّ هذا الاهتمام لم يكن بمفهومه العام دقيقاً، ولا يشير إلى ملامح نهائيّة في عمليّة التّواصل البشريّ، فما إنْ لاح القرن العشرون بدراساته اللّغويّة الحديثة؛ حتّى كشف الباحثون اللّغويون المُحدَثون أنّ عمليّة التّواصل لا تتمّ بواسطة اللّغة المنطوقة فحسب؛ بل يستخدم الإنسان وسائل متنوّعة أخرى مثل الإيماءات الحركيّة، والإشارات الجسديّة؛ فالأبكم لا يستطيع النّطق، بل يتواصل مع الآخرين بحركاته وإشارات جسده، ومن هنا بدأت العناية بمبحث الإشارات الجسديّة، الّتي تنوب في كثير من المواضع عن اللّغة أو توازي وظيفتها التّواصليّة، كما أنّ الإشارات تخضع كاللّغة لاتّفاق الجماعة، فالإنسان يستخدم – في أثناء كلامه– أعضاء جسده، فهو يتكلّم بجسده كما يتكلّم بلسانه.

أهمية البحث وأهدافه:

برزت أهميّة هذا العلم بوصفه موضوعاً من الموضوعات العمليّة؛ لأنّ الإنسان يحتاجه في أيَّة لحظة من لحظات حياته اليوميّة، فهو يشرك أعضاء جسده في أثناء خطابه، بل أحياناً يخاطب بها، فعليه أن يتفاعل مع رسائلها ويدرك مغزاها ومدلولاتها، كما أنّه يرسل رسائل جسديّة متنوّعة تعبّر عن خفاياه وأسراره، ممّا يوجب عليه أن يكون على درجة عالية من الانتباه، ويحسن التّصرف في كلّ موقف. وقد وجدت أنّ كتب التراث العربي، قد دُوّن في طياتها كثيرٌ من الأقوال الّتي تشير إلى أهميّة الإشارات الجسدية في عمليّة التَّواصل البشريّ، فقد حفلت سور القرآن الكريم بصور لهيئات جسديّة كهيئة أهل الكهف وأقوام الأنبياء وغيرهم، وهي تصور حالات جسديّة، تفصح عن حكم تشريعيّ يشارك اللّفظ في وعظ المسلمين. كما أشـــار علماء اللّغة العرب مثلَ الجاحظ وابن جني والثّعالبي وغيرهم في كتبهم إلى مشاركة أعضاء الجسد اللّفظ في إيصال الفكرة، بالرّغم من أنَّهم لم يفردوا لذلك مباحث خاصّة، أو يطلقوا عليه مصطلحات صريحة، بل بقيت إشاراتهم تلميحات بدائيَّة، فها هو ذا الجاحظ في كتابه البيان والتّبيين، يقول: "والإشارة واللّفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان... وفي الإشارة بالطّرف والحاجب وغير ذلك مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض النّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ولولا الإشارة لم يتفاهم النّاس معنى خاصّ الخاصّ ولجهلوا هذا الباب ألبتة"[1].

منهجية البحث:

وكان المنهج الوصفي هو المنهج الّذي اتّبعته، في محاولة للوصول إلى دلالات حركات الجسد وإشاراته، وإبانة ما لها من أهميّة بالغة في عمليّة التّواصل البشريّ، فقد اتّبعت هذا المنهج لاستنباط تجلّيات علم الحركة الجسدية من كتب التراث العربي.

تجلّيات علم الحركة الجسديَّة في كتب التراث العربي:

يحسب بعض الباحثين أن علم الحركة الجسديّة من العلوم الحديثة الّتي طرقت بوّابة المعرفة في سبعينيّات القرن الماضي، حين قالت الباحثة **ألن بيز**: "إنّه ليبدو أمراً غير معقول على مدى مليون أو أكثر من السّنين على تطوّر

[1] **الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 78.**

الإنسان ألّا تخضع الاتّصالات الصّامتة لبحث أو دراسة جديّة على أيّ مستوى حتى عام 1960، وأنَّ النّاس أصبحوا يدركون وجود قواعد لهذه اللّغة فقط في عام1970 عندما نشر"**جوليوس فاست**" كتاباً عن لغة الجسد وقد كان هذا ملخصاً لما قام به علماء السّلوك من دراسات على الاتّصالات الصّامتة حتّى ذلك التّاريخ وحتّى اليوم"[2].

ولكنّ الباحث المدّقق يعرف أنّ للعرب أثراً كبيراً في وضع ملامح هذا العلم وتطوّر مبادئه في تراثهم الماضي، لكنّه عُرِفَ عندهم بـ: علم الفِراسة[3]، وخاصّة بعد أن قرؤوا كُتب الفيلسوف اليونانيّ الشّهير"أرسطو"[4].

وقد عُرِفَ علم الفِراسة عند علماء العرب بأنّه "الاستدلال بالأحوال الظّاهرة في الجسد على الأحوال الباطنة."[5]، وقيل: "هو علمٌ من العلوم الطّبيعيّة تعرف به أخلاق النّاس الباطنة من النّظر إلى أحوالهم الظّاهرة، كالألوان، والأشكال، والأعضاء"[6].

وقد تجلّى هذا العلم في مواطن كثيرة من تراثنا الفكري واللغوي، وسنذكر منها:

1-القرآن الكريم:

كان القرآن الكريم – كتاب الله تعالى – حجّة على العرب وصناعتهم الكلام، ومفخرتهم البيان، فقد أوقفتني كثير من الآيات التي تشير إلى استخدام الحركة الجسديّة المعبّرة عن المعنى، والمشاركة الألفاظ في إيصال المراد، لا فقراً إلى التّعبير اللّفظيّ، بل محاكاة لواقع الأمر، ومسايرة في التّعبير بالحركة الجسديّة إلى جانب اللّفظ، "فإنّه لم يكن في كماله واكتماله ليقتصر على الكلام المنطوق وحده"[7].

وقد اشتمل القرآن الكريم على عديد من الآيات الّتي تشير إلى أعضاء الجسد المختلفة منها ما يُصدر الحركة ومنها ما يستقبلها، وذلك إما بلفظها وإما بتعبيرات مجازيّة، فقد جاء ذكر العين والطّرف والجبين والجبهة والأنف والفم والشّفتين والأسنان والذقن والخد والوجه والأذن والرّأس والعنق والرّقبة واليد والأنامل وغيرها[8]... وقد نابت هذه الحركات الجسديّة عن الكلمات؛ إذ إنّها وصفت صوراً حياتيّة عاشها الأقدمون، وقد أوردها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم؛ لتكشف عن حالتهم النّفسيّة، كدلالات الرّأس والعين واليد وغيرها...؛ إذ تباينت بتباين الحال.

ومما سنورده لنبرز من خلاله الوظائف الدّلالية لبعض الحركات الجسديّة في القرآن الكريم بعض الآيات التي تصف الحركة، سواء استخدم ذلك الوصف للتّعبير عن حركة جسديّة حقيقيّة، أم ما جاء على سبيل الكناية والمجاز، والسّبب في إدراج الكناية في اعتقادنا أنّ الحركة الجسديّة هي الأصل، ثم بعد ذلك تستخدمها اللّغة إمّا بلفظها وإما على سبيل الكناية والمجاز، مثال ذلك الآية الكريمة: ﴿**وأُحيطَ بثَمَرِهِ فأصبَحَ يُقَلّبُ كفّيهِ على ما أنفَقَ فيها**﴾[9]. فالآية تصف الحركة من حيث إنّها حركة جسديّة لها مقوّمات، ولكنّها تستخدمها كناية عن النّدم؛ لأنّ النّادم يقلّب يديه ظهراً لبطن.

---

[2] **بيز، ألن: لغة الجسم: كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، ص4.**

[3] **حقي، إحسان: علم الفراسة، أسرار الخلق وإبداعها، دار النفائس، لبنان، بيروت، ط2، 1983.**

[4] **ينظر: زيدان ، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الهلال، القاهرة، ط4، 1923، ص9.**

[5] **الرازي، فخر الدين: الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح، تحق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة. ص 12.**

[6] **زيدان، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987م، ص5.**

[7] **محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص187.**

[8] **ينظر: محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، ص 187.**

[9] **سورة الكهف، الآية 42.**

أمّا الآيات الّتي جاء فيها ذكر عضوٍ من أعضاء الجسد في عبارات مجازيّة دون وصف لحركة جسديّة، ومثال ذلك "اليد" في معنى الذّلة والانقياد، في قوله تعالى ﴿**حَتَّى يُعطُواْ الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[10]؛ إذ نجد هنا المجاز من خلال انقيادهم وإذلالهم مرغمين دون أن توصف الحركة الجسديّة[11]. وقد أجمع العلماء على أنّ "الكناية أبلغ من الإفصاح، والتّعريض* أوقع من التّصريح، وأنّ للاستعارة مزيّة وفضلاً، أنّ المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"، "وإذا قلت بلغني أنّك تقدّم رِجلاً وتؤخّر أخرى، كان أوقع من صريحه الّذي هو قولك: بلغني أنّك تتردّد في أمرك، وأنّك في ذلك كمن يقول: أخرج أو لا أخرج. فيقدّم رِجلاً ويؤخّر أخرى"[12]، هذا على رأي الجرجانيّ.

ولورود الحركات الجسديّة في التّنزيل العزيز فضلان؛ أولهما أداء المعنى وتشخيصه، وثانيهما ارتفاع الكلام إلى مستوى الفصاحة، وتجلّى ذلك عند الجرجانيّ آنفاً، وعند الزّمخشري الّذي أعطاه بعداً في الفصاحة فقال: "يجد السّامع عنده في نفسه من الرّوعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المَكنِي عنه"[13]. وهذه بعض الأمثلة الدّالة على الحركات الجسديّة الّتي يُستعان بها في إغناء المعنى:

1-1- الرأس:

تختلف دلالات حركة الرّأس في القرآن الكريم باختلاف الحالة النّفسيّة للإنسان والسّياق المؤدي لها، فهناك حركة تشير إلى الرّفض وأخرى تشير إلى القبول، وأخرى تشير إلى الاستهزاء، وأخرى إلى الإنكار، وأخرى إلى التّحيّة. فالتّباين في حركة الرأس متعدّد، ولكن لابد من الوقوف عند حركات أساسيّة كحركة الرّأس المرفوع الّتي تدلّ على الإباء أو الاستكبار، وحركة الرّأس المخفوض الّتي تدل على الاستسلام والخضوع، وفي كتاب الله العزيز وردت هيئات متعدّدة للرّأس، ومنها:

- **الرّأس المرفوع** خوفاً وهلعاً من يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ**﴾[14]، أي رافعي رؤوسهم إلى السماء، حتّى لا يرى الرّجل المكان الّذي سيضع قدميه عليه من شدّة رفع الرّأس، وهذه الحركة الجسديّة القسريّة تدلّ على شدّة الهول والهلع والخوف الّذي سيطر على أولئك الخائفين من عقاب الله وحسابه.

- **الرّأس المخفوض** من شدّة النّدم والذّل ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوْ رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَاْ وسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا**﴾[15]، فسياق هذه الآية دال على يوم القيامة؛ اليوم الذي يقوم الناس مجيبين نداء الله -عزّ وجلّ-، فأما المجرمون الذين عصوا الله في حياتهم الدنيا فقد أوتوا كتابهم بيسارهم فندموا وتمنّوا لو أرجعهم الله للدنيا مرة ثانية، وهيهات مايطلبون، فصاروا أذلة ورؤوسهم مطأطأة خزياً وذلاً وندماً.

1- 2- العين:

يصوّر الكتاب الحكيم سلوكاً إشاريّاً للعين من خلال آياته الكثيرة الّتي ترسم لنا صوراً مختلفة لحركة العين وهيئاتها والدّلالات المختلفة والمتباينة بحسب الموقف الاتصالي لها، ويدلُّ هذا السّلوك على عدّة معانٍ من ضيق

---

[10] سورة التوبة، الآية 29.

[11] ينظر: محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، ص188-189.

* التعريض في علم البيان: إمالة الكلام عن معناه الوصفي الحقيقي إلى معنى آخر مراد.

[12] الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحق:محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1989م، ص70.

[13] الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دارالفكر، القاهرة، ط1، 1977م، ج3، ص89.

[14] سورة إبراهيم، الآية 43.

[15] سورة السجدة، الآية12.

الحدقة واتّساعها، واستراق النّظر، وزوغان البصر، ولا تقتصر دلالة العين على لفظها فحسب؛ وإنّما على نظيرها من لفظة البصر ولفظة الطّرف، ومن ذلك قوله تعالى في **العين الباكية:** ﴿**وإذا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إلى الرّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[16]، ففي هذه الآية اشتركت حاسّتان في إيضاح الموقف الاتّصالي الجسديّ، هما العين والأذن، فالأذن أسمعتهم الآيات الّتي تُظهر الحقّ من الباطل، فأرسلت رسالة ضمنيّة إلى العين، فما كان على العين إلاّ أن تذرف الدّموع الخاشعة، وتفيض بها من شدّة الإعجاب بكلمات الله –عزّ وجلّ–، فقادتهم إلى الإسراع إلى الإيمان، فكانت دموع العين الفائضة –هنا– دلالة إشاريّة إيحائيّة على حالة أولئك في الخشوع والإعجاب.

1– 3– الوجه:

تباينت دلالات الوجه وإيحاءاته بتباين السياق القرآني الشريف، وذلك بحسب حالة الانفعالات النفسيّة، والوجه ينبئ عن إيماءاته بطريقة صامتة لا حركة فيها، وهو الجزء الذي يضمّ الفم والأنف والعينين، وقد تناول القرآن الكريم حركة الوجه من حيث اتجاهه وأوضاعه، ومن حيث التغيرات التي تطرأ عليه وتعكس الحالة النفسية لصاحبه[17]، وقد وردت هذه المعاني في مواضع متعدّدة في القرآن الكريم، وكان الوجه الباعث الأوّل للتعبير عن دلالات تلك المعاني المتباينة، ففي قوله تعالى:﴿**تَلْفَحُ وُجُوْهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيْهَا كَالِحُوْنَ**﴾[18]، فالدلالة –هنا– في لفظة "**كالحون**"، ففي يوم الحساب، لا حسب ولا نسب ينفع الإنسان إلاّ أعماله، فمن سخر بآيات الله –عزّ وجلّ– في الحياة الدنيا، سوف يصلى نار جهنم، وستحرق وجوههم حتى شفاههم ستذوب وستبدو أسنانهم، والكلوح شدّة اسوداد الوجه من وهج نار جهنم.

2– الحديث النبوي الشريف:

إنّ القارئ للحديث النبوي الشريف، وهو ما صدر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من قولٍ، أو فعل، أو صفة، يستشف من خلال ألفاظه الشريفة حركات جسديّة مصرّحة بدلالاتٍ تنوب عن الألفاظ حيناً، وتلمّح بها حيناً آخر. فتحرز المعنى المراد من الكلام والألفاظ المنطوقة، أو تقوم هذه الإيماءات الإشارية مقام الكلمات أو الجمل.

ولمّا كان الحديث الشريف رسالة نبويّة ينقلها رواة على لسان الرسول – صلى الله عليه وسلم–، كان الحرص كبيراً على أدائها كما رواها الرسول الكريم؛ لأن الأمانة تكون أثقل عندما تكون الرسالة ممتلئة بالحركات الجسدية المشتملة على إيماءات، ودلالات حركية؛ لذلك وقعت الأحاديث الشريفة مواقع متعدّدة...، وكان إيماننا بالرّواة الأمناء الذّين حافظوا في نقلهم لتلك الأحاديث الشريفة حتّى على هيئة الرسول – صلى الله عليه وسلم– وحركاته الجسدية، وإيماءاته، وتعابير وجهه، ويديه، وعينيه، وغيرها... كبيراً، فالحديث النبوي الشريف لم يقتصر على ألفاظ الرسول – صلى الله عليه وسلم– فقط؛ بل على حركاته الجسدية وإيماءاته؛ لأن الرسول كان يستعين بجوارحه، وكثيراً ما كان يحلّها محل اللّفظ، فتكون أبلغ منه في مواضع عدّة، فكانت الحركات باليد والرأس والعين والقدم و...، وتكشف عن معان مكنونةٍ داخل النفس، ويمكن الإفصاح عنها بالنطق واللفظ، فها هو أبو سعيد الخدري يقول: "كان الرسول – صلى الله عليه وسلم– أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه"، فقد أورد البخاري في صحيحه، فقال: ((حدثنا عبدان: أخبرنا عبد الله: أخبرنا شعبة، عن قتاده: سمعت عبد الله، هو ابن أبي عتيبة مولى

[16] **سورة المائدة، الآية 83.**

[17] **ينظر: محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، ص191–192.**

[18] **سورة المؤمنون، الآية 104.**

أنس، عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي – صلى الله عليه وسلم– أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه))[19].

فقد كان صحابة رسول الله– صلى الله عليه وسلم– بارعين في تفسير حاله من خلال حركاته الجسدية وإيماءاته، فقد عرّف العلماء علم الحديث بأنّه " علم يعرف به أقوال الرسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأفعاله وأحواله"[20]. ولعلّ من أبرزها هيئات الرأس ودلالاتها:

لقد كان للرأس حضور كبير ومكانة عظيمة في أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم–، فهو يجمع حواس الإنسان الخمس التي تظهر من خلالها الإشارات، وتُبان الدلالات، وتصدق الأحكام، فيأتي على هيئات وصور مختلفة ومتعدّدة، تعطي دلالات متباينة بحسب حركته، فهناك الرأس المرفوع والمائل والمخفوض، وهذا ما يجعله من أكثر أعضاء الجسد أهمية في عملية التواصل والإبانة، وخاصة عندما يكون الرأس مجيباً بردّة فعل سريعة صادقة، تبيّن حقيقة الأمر، ومن أهمِّ دلالاته: الرأس المجيب بـ "نعم":

يقول البخاري: ((حدّثني محمد بن عبيد: حدثنا عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد قال: أخبرني ابن أبي مليكة: أنَّ أبا عمرو، ذكوان، مولى عائشة أخبره: أن عائشة كانت تقول: إنّ من نعم الله علي: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته: دخل عليَّ عبد الرحمن، وبيده السواك، وأنا مسندةٌ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه: " أن نعم". فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه: " أن نعم". فلينته، وبين يديه ركوة أو علبة – يشك عمر– فيها ماءٌ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: "لا إله إلا الله، إن للموت سكرات". ثم نصب يده فجعل يقول: " في الرفيق الأعلى" حتى قبض ومالت يده))[21].

ففي هذا الحديث الذي أسرَّ أم المؤمنين عائشة وأفرحها؛ لأن الله – عزّ وجلّ – توفّى الرسول الكريم في بيتها؛ إذ مزجت ريقها بريقه، وعندما كانت تسنده على صدرها، دخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليهما، وبيده سواك، فكانت نظرات الرسول – صلى الله عليه وسلم– لا تفارق ذاك السواك.

فأرسلت هذه النظرات رسالة إيحائية إلى عائشة – رضي الله عنها– مفادها أن الرسول– صلى الله عليه وسلم– يشتهي السّواك، فحاورته صائتة، أأخذه لك؟ فكان جوابه صامتاً عبر رأسه محركاً إياه إلى الأسفل أي: "نعم"؛ وذلك لمعاناته الشدّة والألم، فقامت وأعطته السّواك، لكن حالته الصحية كانت تسوء ويشتد عليه المرض، فاستدركت قائلة: أألينه لك؟ فأجاب بحركة رأسه الشريف ثانية "نعم".

فالرّسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– لم ينطق بأيّة لفظة؛ وإنما استخدم رأسه للدّلالة عما يريد الإفصاح عنه، وهذا الحدث التّواصلي أوقفنا أمام طرفين الأوّل لفظي صوتي كلامي نطقت به أم المؤمنين عائشة، والثاني اعتمد عليه الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– وهو حركي صامت، فحدث التّواصل بينه وبينها، ووصلت رسالته الإشارية المستعصية عليه لفظاً.

---

[19] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الصحيح، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، مركز الشرق الأوسط الثقافي، بيروت، ط (1)، ج 9، ص 125.

[20] "السيوطي، جلال الدين: تدريب الروي في شرح تقريب النووي، مكتبة الكوثر، د ط، د ت، ص 27.

[21] البخاري، الصّحيح: كتاب المغازي، باب" مرض النبي – صلى الله عليه وسلم– ووفاته"، ج7، ص 175.

3- "البيان والتبيين" للجاحظ:

ألّف الجاحظ كتاب "**البيان والتبيين**"، وضمّنه قصصاً وروايات وخطباً كلامية لأئمة المتكلمين، فلم يصبّ عنايته على اللغة المنطوقة فحسب؛ بل لفت الأنظار إلى ظاهرة لغة الجسد من خلال تصوره العميق لوظيفة اللغة التي تعدُّ وسيلة من وسائل التواصل. ومن خلال عرضه لتلك الشواهد الكلامية، أبرز أن الكلام لابدّ أن يتطلب مكملات لإيصال المعنى، مثل الإشارات الجسدية، فجعل الإشارة قسيمة اللفظ؛ إذ قال:" فذكر المبسوط في موضعه، والموجز، والكناية والوحي باللحظ ودلالة الإشارة"[22]، وكثيراً ما جعلها تتقدم أو تنوب عنه، فهي تشكل عنده ثلثي الكلام؛ فقال:" وفي الحديث أنه لا يفتح عمورية إلاّ رجال ثيابهم ثياب الرهبان، وشعورهم شعور النساء. وكل ما زادوه في الأبدان، ووصلوه بالجوارح، فهو زيادة في تعظيم تلك الأبدان. والعصي والمخاصر مع الّذي عددناه، ومع الّذي ذكرناه ونريد ذكره من خصال منافعها، كله باب واحد. والمغنيّ قد يوقّع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه. ففوقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضرب المعاني. ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه. وقال عبد الملك بن مروان: لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي..."[23]. فهذه دلالة مباشرة إلى شكل جسد الإنسان الظاهري الّذي يشارك اللفظ في إيصال المعنى.

وإذا كان لكل مقام مقال، فكل خطبة وحوار تتطلب ممن يؤديها، أن يرتدي ثياباً مناسبة لمقتضى الحال، ولابد أن يقوم بحركات جسدية تساند كلماته في إيضاح القصد، وكثيراً ما أكّد الجاحظ أن الخطيب أو المتحدث لا يستطيع أن يفرغ ما عنده من أفكار إلاّ إذا استعان بأداة ما، فالخليفة عبد الملك بن مروان كاد ينسى ثلثي خطبته إذا سقطت خيزرانته من يده، وهذا يؤكد مشاركة الحركات الجسدية والأدوات الخارجية في مساندة المتكلم بالتعبير عما يريد، كما أشار إلى افتقار اللغة وحاجتها إلى الإشارة لمساعدتها في إكمال البيان والتواصل.

ولابد للإشارة أن تستعين بحركات الأعضاء أو الأدوات التي يحملها المتكلم، فيقول:"وقالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية. القضيب للإيقاع، والقناة للبقّار، والعصا للقتال، والقوس للرمي. وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر، ويعترضا على الذهن أشبه؛ وليس في حملها ما يشحذ الذهن، ولا في الإشارة بهما ما يجلب اللفظ"[24]، ويقول أيضاً: "كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الأرض بالقسيّ، وتشير بالعصى والقنا. نعم حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسها"[25]، وهذا ماجعل الشعوبية يبدون موقفا سلبيا من استعانة العرب بهذه الأدوات في أثناء خطبها، فقال: "وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس، والحَدِّ في الأرض، والإشارة بالقضيب"[26].

كما يشير لرأي أبي شمر الذي يعارض استعمال المتكلم للإشارة ويتهمه بالعجز عن إيصال المعنى، فيقول: "ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمة إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة، بالزيادة في المسألة، حتى حرك يديه وحل حبوته، وحبا إليه حتى أخذ بيديه"[27].

---

[22] **الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص44.**

[23] **المصدر السابق، ج3، ص119.**

[24] **المصدر السابق، ج3، ص12.**

[25] **المصدر السابق، ج1، ص370.**

[26] **المصدر السابق، ج1، ص383.**

[27] **المصدر السابق، ج1، ص91.**

وقد جعل الجاحظ الإشارة من علامات البلاغة، فقال: "قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة"[28]، ويذكر الجاحظ حسن الإشارة في موضع آخر مؤكداً مشاركتها في إيصال المعنى، فيقول: "وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدّلّ والشكل والتّقتّل والتثنّي، استدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور"[29].

والإشارة عنده نوع من أنواع الإبانة والإيضاح، فهي جزء من البيان، فاللفظ المؤدي معنىً بيان، والإشارة **(لغة الجسد)** التي توحي بمعنىً بيان؛ لذلك عرّف البيان بأنه: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليه يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[30].

وقد صنف الجاحظ الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ في خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ وعماده الصوت المنطوق، وثانيها الإشارة لما لها من أهمية وهي التي يقوم بها أعضاء الجسد وغيرها. وثالثها العقد وهو ضرب من الحساب، ورابعها الخط الذي يقوم به القلم، وخامسها النصبة وهي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقتصر على تلك الدلالات[31].

وهكذا دوّن الجاحظ في "البيان والتبيين" أوصافاً وهيئاتٍ جسدية كثيرة، بانت من خلال الشواهد التي استعملها من آيات كريمة، وأشعار وقصص وخطب جليلة.

4- "الخصائص" لابن جنيّ:

اعتنى ابن جني في كتابه "**الخصائص**" بظواهر لغوية عديدة، وخصّ في دراسته هذه المعنى الّذي يحتاج إلى من يؤديه، ولفت الانتباه إلى أنّ المعنى يُؤدى بالدرجة الأولى بالألفاظ، لكنّ هذه الألفاظ تحتاج إلى مصاحبات غير صائتة، وقد تكون الحركات الجسدية من أكثر المصاحبات غير الصائتة التي تشارك الألفاظ في إيصال المعنى، فقد تحدّث عن ظاهرة الحذف من السياق البنيوي، فقال: "قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه"[32]،

والمعنى يحتاج إلى تعويض المحذوف، ولا يكون ذلك إلا من خلال حركة جسدية وإشارة دلالية تساند اللفظ في إتمامه وتحقيق التواصل، فيقول في ذلك: "وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[33]. ولا يخفى علينا أنّ ابن جنيّ دلّ على مثل هذه الحركات بمصطلح "**سياق الحال**"، فقال:"سألناه فوجدناه إنساناً"[34]، هذه العبارة المنسلخة من سياقها، مثال واضح على دلالة لغة الجسد، فحذْف صفة الإنسان فيها يحتاج لما يعوض عنها في الإبانة والتوضيح، كالتنغيم والحركة الجسدية، فعندما توضع هذه العبارة في سياقها بما فيه من درجة الصوت، وحركة الأعضاء، ونمط

---

[28] المصدر السابق، ج1،ص 88.

[29] المصدر السابق، ج1، ص79.

[30] المصدر السابق، ج1،ص76.

[31] ينظر: المصدر السابق، ج1، ص76.

[32] ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت، ج2، ص360.

[33] المصدر السابق، ج2، ص360.

[34] المصدر السابق، ج2، ص371.

التنغيم، تكون دلالتها واضحة وصفة الإنسان بيّنة، فمن خلال هذه المساندات للفظ قد تكون صفة الإنسان المحذوفة الكرم، فحركة الكف مع الذراع، أو تعابير الوجه المستبشرة حركة جسدية تدل على ذلك، وتقوم مقام تلك الصفة، وقد تكون الصفة المحذوفة على غير ذلك، فتكون الحركة الجسدية دالة على صفة أخرى، كتقطيب الحاجبين، فيقول ابن جني: "وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق، قلت: سألناه وكان إنساناً! وتُزوّي وجهك، وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً، أو لحزاً، أو مبخلاً، أو نحو ذلك"[35]، فكل صفة يتوقعها القارئ لهذا الإنسان لها دلالات جسدية تفصح عنها لا تكون بالألفاظ فقط، وإنما تكشفها حركات الجوارح، وتعبيرات الوجه، وغيرها...

ومما حكى عنه ابن جني في تأكيد ما سبق، قوله:"وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ بـ(الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك"[36]، فلإيضاح دلالة القصد نحتاج إلى حركة جسدية، تفصح عن تأملات الرجل وإحساساته الدّاخلية، ففي عبارة "كان والله رجلاً" وانقطاع الكلام عندها، لم يؤدِ اللفظ المعنى المراد والقصد المرجو؛ لذلك من الضروري أن تشارك أعضاء الجسد الكلام في الوصول إلى صفة هذا الرجل، فقد يكون رجلاً شجاعاً أو جباناً، فيأتي بحركات لها دلالة مطابقة لمقتضى الحال.

ويرفض ابن جني أن تكون حاسة السمع كافية لإتمام المعنى وتحقيق التواصل من دون أن تشاركها حاسة الرؤية، فيقول مستشهداً في ذلك: "وبعد فالحمالون والحماميّون، والساسة والوقادون، ومن يليهم ويعتد منهم، يستوضحون من مشاهدة الأحوال مالا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به عنه، ولم يحضره يُنشده. أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، ويُنْعِم تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه، فيقول له: يا فلان، أين أنت، أرني وجهك، أقبل علي أحدثك، أما أنت حاضر يا هناه. فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك. فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه بالإقبال عليه، والإصغاء إليه"[37].

وهذه دلالة على أن اللغة المنطوقة لا تقدم المعنى الكلي، بل تحتاج إلى رؤية العين لخدمة المعنى والإبانة عنه، فالعين غالباً ما تختصر الكلام، وتأخذ العبرة من وجوه الآخرين، وكثيراً ما تساعد على فهم المطلوب قبل أن يبوح به المتكلم، وهذا دليل واضح بيّن على أهمية مشاركة العين في الحوار، فهي تكشف بعض المعنى المراد.

وقد تحدث ابن جني عن فهم العرب القدامى لمقاصد القادم إليهم من صورة وجهه، فالإشارة تسبق العبارة، وتدل على أن المرء قد يفصح عما في داخله قبل أن يتفوه بالكلام، فيقول: "فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتُضطرَّ إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة، لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل"[38]، فهذا تأكيد أن الوجه يكشف عن المراد وتسبق إشارته الكلام، ويقول أيضاً:

---

[35] **المصدر السابق، ج2، ص371.**

[36] **المصدر السابق، ج2، ص371.**

[37] **المصدر السابق، ج1، ص246-247.**

[38] **المصدر السابق، ج1، ص248.**

"وأنا لا أحسن أن أكلم إنساناً في الظلمة"[39]، وهذه العبارة تؤكد أهمية لغة الجسد في إتمام عملية التواصل، ففي الظلمة يسمع صوت المتكلم فيظل المعنى فقيراً؛ لأن الجسد يمنح المعنى دلالات جديدة، فلعل أفضل الطرق للتواصل أن يظهر الجسد كاملاً، وخفاء أي جزء منه قد يخفي جزءاً من المعنى، وهذا يثبت معنى قول شيخ ابن جني الذي لا يستطيع أن يكلم من كان في الظلام؛ لأن الكلام سيفقد كثيراً من دلالته التي تكتمل بمساعدة حركات الجسد الإيمائية، ومن ذلك قوله: "أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما في النفوس وعلى ذلك قالوا: (ربّ إشارة أبلغ من عبارة)"[40].

ولعل العين أثارت انتباه ابن جني، فذكر بعض الشواهد الشعرية التي تعبر عن دورها في عملية التواصل، فأورد قول الشاعر:

وَقَالَتْ لَهُ العَيْنَانِ: سَمْعَاً وطَاعَةً وَأَبْدَتْ كَمِثْلِ الدُّرِّ لَمَّا يَثْقُبِ

فأما قوله: (وقالت له العينان سمعاً وطاعة) فإنه وإن لم يكن منهما صوت، فإن الحال آذنت بأن لو كان لهما جارحة نطق لقالتا: سمعاً وطاعة"[41]، فقد نبّه ابن جني أن يتحقق معنى الطاعة من خلال هاتين العينين، فلو كان لهما فم ناطق لنطق بدلالتيهما نفسها.

وقد كان للشفتين –وهما جزء من الوجه– نصيب من حديث ابن جني وخاصة حين تحدث عن اختلاس الحركة، فوقف عند الإشمام الذي يقول فيه: "إنما هو للعين لا للأذن"[42]، وهذا يدل على أن العلامة تكون مرئية لا مسموعة، فالإشمام يتحقق بحركة جسدية، وقد روى ابن جني من قول الراجز:

مَتَى أَنَامُ لا يُؤَرِّقْنِي الكَرِى لَيْلاً ولا أَسْمَعُ أَجْرَاسَ المَطِى

بإشمام القاف في "يؤرقني"، وليست هناك حركة البتة، ولو كانت فيه حركة لكسرت الوزن؛ ألا ترى أن الوزن من الرجز، ولو اعتدّت القاف متحركة لصار من الكامل. فإذا قنعوا من الحركة بأن يومئوا إليها بالآلة التي من عادتها أن تستعمل في النطق بها، من غير أن يخرجوا إلى حس السمع شيئاً من الحركة، مشبعة ولا مختلسة، أعني إعمالهم الشفتين للإشمام في المرفوع، بغير صوت يسمع هناك، لم يبق وراء ذلك شيء يستدل به على عنايتهم بهذا الأمر؛ ألا ترى إلى مصارفتهم أنفسهم في الحركة على قلتها ولطفها حتى يخرجوها تارة مختلسة غير مشبعة، وأخرى مُشَمّة للعين لا للأذن"[43]. ولما سكنت القاف واختلست حركتها فُقِد المعنى، فكان لا بد من مساندة حركة الشفاه التي تدل على أنها مرفوعة، وهذا يعني أن لحركة الشفاه أهمية بالغة في استقامة المعنى وإيضاحه.

وهكذا، فقد عرض اللغوي ابن جني وظائف تواصلية لبعض أعضاء الجسد، فكانت جديرة بالتقدير والاهتمام على قلتها وتناثر مواضعها في كتابه.

---

[39] المصدر السابق، ج1،ص247.

[40] المصدر السابق، ج1،ص247.

[41] المصدر السابق، ج1،ص23–24.

[42] المصدر السابق، ج1،ص73.

[43] المصدر السابق، ج1، ص73.

5- الشعر العربي:

لمّا كان الشَّعر العربي ديوان العرب، وحافظ تراثهم وتاريخهم، تضافرت جهود الباحثين في التّمعن بمعانيه، واستقصاء دلالاته، فالشعر كان ملجأ الشاعر للتعبير عن أفكاره والبوح بأسراره، فله مكانة مرموقة بين النّاس، فكانت المناظرات والمنافسات الشعرية بين القبائل تبرز قبيلة وتقدّمها على غيرها، فاستخدموا الكلمات الصّائتة لإيصال مطلبهم، عبروا عن حركاتهم الجسديَّة من خلالها، فللفم إشارة، وللحاجب غمزٌ، وللعين كلام وسلام، وغيرها...

5-1- الوجه:

يعدَّ الوجه من أكثر أعضاء الجسد فضلاً في التّواصل، لما يشتمله من جوارح أخرى كالعينين، والحاجبين، والفم؛ لذلك أورد الشعراء وصفاً لهذه الجوارح في دواوينهم، فتحدثوا عن صفة الخجل التي تكسب الوجه احمراراً ورديا، فهذا الشاعر علي بن الجهم يتحدث عن معشوقته الجميلة التي اقتربت وسلّمت فخجلت، واحمرّ خدّها احمرار التفاح، فقال:

وَدَنَتْ فَلَمَّا سَلَّمَتْ خَجِلَتْ والْتَفَّ بالتُّفَّاحِ خَدّاها[44]

وهذا خير شاهد تصوّر كلماته الحال النفسيَّة التي أظهرت بواطن وخفايا هذه المحبوبة.

5-2- الرأس:

للرأس في أشعار العرب مكانة ومرتبة في عملية التّواصل، فهو عضو جسدي تحمله الرقبة، فيؤدي حركاته الدلالية من خلال الاهتزاز، وقد استخدمه الشعراء وأوردوه للتعبير عن دلالات مختلفة، فهناك هزّ الرأس قبولاً أو رفضاً، أو استهزاء، أوسخرية، أواستنكاراً أو لوماً، وهذا ما برز في أبيات الشاعر عمر بن أبي ربيعة حين عبّر عن دلالة اللوم باهتزاز الرأس:

أَبِيْنِيْ لَنَاْ كَيْفَ السَّبِيْلُ إلى الّتيْ نَأَتْ غُرْبَةً عَنّا بِهَا مَا تلَاْئِمِ
فَقَالَتْ وَهَزَّتْ رأسَهاْ: لَوْ أَطَعتَناْ تَجَنْبْتَهاْ أيَّامَ قَلْبِكَ سَالِمِ[45]

فلّما سأل العرّافة عن علاج له، وطريق الوصال إلى محبوبته، أجابته بحركة جسدية، فهزّت رأسها لائمة إيّاه ومتحسرة لأنّه لم يطعها.

5-3- العين:

لعلّها من أكثر أعضاء الوجه لفتاً للانتباه، وكثيراً ما تنوب عن الكلام، فأوّل ما تقع الأنظار عليها، ويفهم القصد والجواب بحركتها، لذا كان لها وظائف دلاليَّة عديدة تفسر مقاصد دفينة، ومنها العين المسلمة، والعين الغافرة، والعين المشيرة، والعين السائلة، والعين المجيبة، والعين الباكية، وغير ذلك من الدلالات.

ولم يبق أحد من الشعراء والأدباء إلا وقد وظّف حالاتها في كتاباته بكثرة شعراً ونثراً، فابن حزم جعل أولى علامات الحب التي"يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي... إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقّبة عن

[44] **علي بن الجهم، ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، لبنان، بيروت، ط2، ص 190.**
[45] **عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، تحق: عبد علي مهنا، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط2، 1992م، ص331.**

سرائرها، والمعبّرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها، فترى الناظرة لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس، وفي ذلك أقول شعراً منه:

فَليسَ لِعَينيْ عِنْدَ غِيْرِكِ مَوقِفٌ كأنَّكِ مَاْ يَحْكُوْنَ مِنْ حَجَرِ البُهْتِ
أُصَرِّفُهاْ حَيْثُ اِنْصَرَفْتْ وَكَيْفَماْ تَقلّبْتْ كَالمَنْعُوتِ فِيْ النَّحْوِ والنَّعْتِ"[46]

كما أفرد باباً كاملاً في كتابه "**طوق الحمامة**" عن العين أسماه **(باب الإشارة بالعين)** فكثيراً ما تتابع العين الحديث، وتكمل الجواب، فيقول: "ثم يتلو التعريض بالقول، إذا وقع القبول والموافقة، الإشارة بلحظ العين، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويُقطع به ويُتواصل، ويُوعد، ويهدد، ويُنتهر ويبسط، ويُؤمر وينهي، وتضرب به الأوعاد، ويُنبه على الرقيب، ويُضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطي. ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللّحظ لا يُوقف على تحديده إلاّ بالرّؤية، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلاّ بالأقل منه. وأنا واصف ما تيسر من هذه المعاني: فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التّهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما* سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهدُ المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام. وسائر ذلك لا يدرك إلاّ بالمشاهدة"[47].

ثمَّ يفسّر أهميّة العين في عملية التواصل، فهي تنوب عن الرُسل، وهي أبلغ الحواس وأوضحها دلالة، بها نقف على الحقائق، فهي تدرك السماءعلى بعدها، وشدّة ارتفاعها، ويثبت تقدّمها على بقية الحواس الّتي لا تدرك إلاّ القريب، فيقول في ذلك: "ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوّت قبل سماع الصّوت، وإن تعمدت إدراكهما معاً. وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدّمت العين السمع"[48].

ولمّا كانت العين أبلغ الحواس، ومقدّمة في الإدراك، دوّن الشّعراء أبياتاً عديدة تُوّجت بها العين لفضلها على الحواس، فلغتها لغة عالميَّة، تُفصح عمّا يريد صاحبها، وتُعبّر عن مكنونات ذاته، فهذا أبو نواس يقدّس العيون، ويعتبر أن جميع اللّغات تنصهر في بوتقة لغة العيون:

تَجْمَعُ عَيْنِيْ وعَينُها لغةً مُخَالِفٌ لَفْظُها لِمَعْنَاهَا
إذاْ اقْتَضَاهاْ طَرْفِيْ لَهَاْ عدةٌ عَرَفْتُ مَرْدُودَهَا بِفَحْوَاهَا
ذِيْ لُغَةٍ تَسْجُدُ اللّغَاتُ لَهَاْ ألغَزَهَاْ عَاشِقٌ وعَمَّاهَا[49]

وعلى قدم قول الشاعر أبي نوّاس، فقد آمن بأن لغة العيون لغة عالميّة تسجد لها لغات العالم جميعها.

---

[46] ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضبط نصّه وحرّر هوامشه الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط1، د.ت، ص 16.

***هكذا وردت في طبعة (الطاهر)، والصواب"كليتهما".**

[47] المرجع السابق، ص 43.

[48] المرجع السابق، ص 43.

[49] أبو نواس، ديوانه، دار صادر، دار بيروت، لبنان، بيروت 1962، ص 671.

"فالعين وإن كانت ركناً ضعيفاً في جسد الإنسان، فإن الشاعر ابن زيدون قد وظف هذه النعمة في الطبيعة، واستساغه العين لما تراه وتحس به وتستمتع بمرآه، ثمَّ يعرّج إلى منحى آخر، حيث يبعث الشحنة العاطفيَّة في أعماق هذه العين، ويجعل منها كائناً متحركاً، فالطبيعة تتحوّل إلى عين فيّاضة بالأحاسيس الإنسانيَّة".[50]

فيقول:

نَلْهُوْ بِمَاْ يَسْتَمِيْلُ العَيْنَ مِنْ زَهْرٍ جَالَ النَّدَى فِيْهِ حَتَّى مَالَ أعنَاقَا[51]

وكثيراً ما تفصح العين عن خلجات النفس ونوازع الروح بإيماءاتها وإشاراتها، فها هو ذا أحمد بن علي البتي الكاتب، يقول:

ما احمرَّتْ العينُ مِنْ دمعٍ أضرَّ بِها في عَرصَتي طلَلٌ أو إثْرَ مُرتحـــلِ
لكنْ رآهَاْ الذيْ يَهوَى وقَدْ نَظرَتْ فِيْ وَجْهِ آخرَ فاحمَرَّتْ مِنَ الخَجلِ[52]

فالعين تفضح حالة شعورية نفسية أربكت صاحبها، فاحمرت وتلونت من شدة الخجل، وكأنها تكشف عما يجول بداخله من خيال، وتفصح عن خيانة العاشق لمعشوقته، عندما نظر إلى غيرها ورأته، فتلون العين واحمرارها دلالة إيحائية إلى حالة الخجل وليس المرض.

وكذلك قول الخليل بن أحمد الفراهيدي:

العَينُ تُبْصِرُ ماْ تَهوَى وتَفقدُهُ وباطِنُ القلبِ لا يخلُو مِنَ النَّظرِ[53]

فقد مثلت العين في هذا البيت دور العدسة التي تلتقط الصور المحببة، ثم ترسلها إلى القلب؛ ليخفق إعجابا بها، فحدث التواصل بتبادل الأدوار بين العين والقلب، وكأن الرؤية القلبية تشاركت مع الرؤية البصرية للتعبير عن حالة الإعجاب التي أذهلت العاشق.

5-4- المشية:

وللمشية هيئات وأشكال ذات دلالات توحي بمعانٍ خاصّة، وهي تتبع الحالة النفسيّة الّتي تصيب صاحبها، وتتباين بتباين الأحوال والدلالات، فهناك المشية الدّالة على الاستخفاف، والمشية الدّالة على الخجل والاستحياء، والمشية الدّالة على التّبختر والترّنح، وغيرها...

فهذا أبو نواس يصوّر تمايل المرأة وترنحها في مشيتها في أثناء حوارها إياه، فيقول:

قالَتْ وقدْ جعلَتْ تمايلَ لِي كتمايُلِ المَاشِي على الدَّفِ[54]

---

[50] **شماس، جاك صبري، مجلة المعرفة، لغة العيون، عند الشعراء العرب، العدد 504، أيلول، 2005م، السنة 44، ص86.**

[51] **ابن زيدون، ديوانه، تحقيق كرم البستاني، دار صادر بيروت، ط3، 2003، ص109.**

[52] **الرومي، ياقوت، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، المجلد الثاني، ج3، ص262.**

[53] **الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.، ج2، ص824.**

فهذه مشية متمايلة دالّة على الرغبة في لفت انتباه الشاعر؛ لإغوائه واستمالة نظره لها، وهي تتبختر وتختال في مشيتها، وكأنّها تسير على خشبة مسرح للرّقص.

الخاتمة:

وبعد هذا العرض يمكن أن نقول: إنَّ في القرآن الكريم نمطاً تواصلياً غير لفظي **(لغة الجسد)** يوازي تماماً التَّواصل اللّفظي، فالحركات الجسدية فيه تسدّ مسدّ الكلمات والألفاظ المعبرة عن شيء معين، كما تكشف ضمن سياقها عن حالاتٍ نفسية تعتري أصحابها، وقد دلت الحركات الجسدية في التنزيل الحكيم على أنها ذات دلالات عالميّة غريزية عند البشرية عامّة، وهذا ما أكدته ترجمات معاني القرآن الكريم؛ إذ ترجمت الحركات الجسدية حرفياً دون إيضاح معناها. وهكذا يبدو لنا أنّ الحركة الجسدية في السياق القرآني تؤدي أغراضاً ووظائف متعددة، تنوب عن الألفاظ والأصوات.

كما أنّ الحركة الجسدية التي استخدمها الرسول الكريم في الحديث النبوي الشريف قامت في كثير من السياقات مقام الكلام، وفي سياقات أخرى عزّزت المعنى المنطوق، فتشكلت بذلك الدلالة الكلية المقصودة بالصائت المنطوق (الكلام) والصامت الحركي(الصامت).

ولقد أورد الجاحظ في كتابه "**البيان والتبيين**" أوصافاً وهيئاتٍ جسدية منها ما يحمل دلالات معينة، ومنها ما بقي واصفاً للحركات الجسدية التي لا تؤدي وظيفة تواصلية، واستشهد بأبيات شعرية تدل كلماتها على وظائف دلالية للحركات الجسدية.

أمّا ابن جني فقد عرض نماذج لدلالات لبعض أعضاء الجسد، فكانت جديرة بالتقدير والاهتمام على قلتها وتناثر مواضعها في كتابه، وخاصة أنّ ابن جني قد التفت في دراسته إلى ظاهرة الحذف اللّفظيّ، وهي الظاهرة الّتي تتطلّب مشاركة اللّغة الصّامتة المتمثّلة بلغة الجسد لتحقيق التّواصل.

وأخيراً، فقد فاضت كتب تراثنا العربي من نثر وشعر بألفاظ هيئات الجسد التي دلّت على معانٍ معيّنة، وشاركت الكلام في تقديم المعنى، لذا زرع العرب بذور هذه العلم الحديث بالرّغم من أنّهم لم يسطّروا قواعده ويدّونوا مبادئه إلاّ أنّهم أغنوه بروافد المعرفة الّتي تسّهل إجراءاته في عصرنا الحديث.

وفي النّهاية، أرجو أن أكون قد قدّمت فائدة ترفد جداول العلوم العربيّة الحديثة، وتقدّم درساً لغويّاً يحفّز القائمين في مجال التّربية إلى أهميّة توظيف لغة الجسد ومهاراتها التّواصليّة في العمليّة التّربوية المستقبليّة.

---

[54] **أبو نواس، ديوانه، ص418.**

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الصحيح، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، مركز الشرق الأوسط الثقافي، بيروت، ط (1).
- بيز، ألن: لغة الجسم: كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، تر: هاني غازي، عمان، ط2، 1992م.
- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحق:محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1989م
- ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت.
- ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضبط نصّه وحرّر هوامشه الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط1، د.ت.
- حقي، إحسان: علم الفراسة، أسرار الخلق وإبداعها، دار النفائس، لبنان، بيروت، ط2، 1983.
- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
- الرازي، فخر الدين: الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح، تحق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة.
- الرديني، د. محمد علي عبد الكريم: فصولٌ في علم اللغة العام، بيروت، لبنان، عالم الكتب، ط1، 1423-2002م.
- الرومي، ياقوت، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دارالفكر، القاهرة، ط1، 1977م.
- زيدان ، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الهلال، القاهرة، ط4، 1923.
- زيدان، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987م.
- ابن زيدون، ديوانه، تحقيق كرم البستاني، دار صادر بيروت، ط3، 2003.
- السيوطي، جلال الدين: تدريب الروي في شرح تقريب النووي، مكتبة الكوثر، د ط، د ت.
- شماس، جاك صبري، مجلة المعرفة، لغة العيون، عند الشعراء العرب، العدد 504، أيلول، 2005م، السنة 44.
- علي بن الجهم، ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، لبنان، بيروت.
- عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، تحق: عبد علي مهنا، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط2، 1992م.
- أبو نواس، ديوانه، دار صادر، دار بيروت، لبنان، بيروت 1962.
- محجوب، د. فاطمة: دراسات في علم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت.